مجله زبان و ادبیات عربی (مجله ادبیات و علوم انسانی سابق) (علمی ـ پژوهشی)، شماره چهاردهم ـ بهار و تابستان ۱۳۹۵

الدّکتور محمد جواد پورعابد[1] (الاستاذ المشارک في قسم اللّغة العربية و آدابهابجامعة الخليج الفارس، بوشهر، إيران)

التّطوّر الدّلالي للفظ "الباب" في شعر بدر شاكر السّيّاب

الملخّص

لمـاّ تجـرّع السّـيّاب الكآبـة، والفقـر والحرمـان، وعـاش في بلـد جـرّب الـويلات والمحـن، توسّـع في استخدام بعض الدّوال، وجعلها مصدراً للإلهام والإيحاء ومستودَعاً لانتقال تجاربه ورؤيته؛ حيث يمكن القـول أنّـه وجد فيهـا مـا يمكّنه التّعبير عـن لواعجـه. فلفـظ "البـاب" يعـدّ مـن جملـة تلـك الـدّوال. إنّـه استخدمه أكثـر مـن مـأة وخمسـين مـرّة وهـذا دليـل علـى التّطـور الـدّلالي لهـذا اللفـظ ومرونتـه ومـن ثمّ انصياعه لهذا التّطور؛ إذ قام بإيلاجه في بنية لغويّة تحتضن الرّمز وتنمّيه. فكان وجوده جليّاً في شعره، حيـث يمكـن أن نعـدّه مـن ثيمـات شعره، وكـان مصـدر اهتمامه فركّز عليه في أشعاره وشحنه بأبعاد ودلالات مختلفة، ليصبح ذات دلالات فكريّة. فحمل هذا الدّالّ وجوهاً من انطباعات الشّاعر وذلك باعتماد على المذخور الشّعبيّ. أمّا التحوّل الدلاليّ الذي أصاب دالّ "الباب" هـو: الخـوف والأمـان، المحدوديّة والحريّة، واليأس والأمل، والعمار والخراب، والاتصال والانطوائيّة وما إلى ذلك.

تهدف هذه الدّراسة مناقشة التّطور الدّلاليّ لكلمة "الباب" والبحث عن أسباب حضورها الموسّع في شعر الشّاعر، إذ إنّها ليست مفردة فحسب؛ بل لها تداعيات يمكن رصدها في المفاهيم المذكورة أعلاه. هـذا وأنّ رؤيـة السّـيّاب إلى تـداول الكلمـة في شعره شكّلت ثنائيّـات ضـدّية، يمكـن اسـقرارها على قسمين: قسم خاصّ بالرّؤية الإيجابيّة والقسم الآخر بالرّؤية السّلبيّة. أمّا المنهج الذي اعتمدت عليه الدّراسة منهج وصفيّ تحليليّ، حاول فيه التقاط التّطور الدّلاليّ لهذه الكلمة في نصوص الشّاعر، وذلك عبر اختيار مقاطع شعريّة حضرت فيها الكلمة، إضافة إلى تحليل البنية اللّغويّة وبعض الظّواهر الأسلوبيّة المسخدمة في هذه المقاطع والتي ساعدت على تنمية هذا التّطوّر الدّلالي.

الكلمات المفتاحيّة: السّيّاب، الشّعر، الباب، التّطوّر، الدّلالات الإيجابيّة، الدّلالات السّلبيّة.

۱–المقدمة

الباب يعني المعبر وهو الذي يدعو إلى المرور منه أو يحظر اجتيازه فينفتح على الأسرار. إنّ «الباب» في الذاكرة الشعبيّة يفتح على عدد من المعاني والدّلالات. فهو دالّ ومدلول معاً. يعطي المعاني بشكلها

تاريخ دریافت: ۱۳۹۴/۰۹/۲۹ تاريخ پذيرش: ۱۳۹۵/۰۵/۳۰

پست الكترونیکی: 1. Javad406@gmail.com

المباشر أو غير مباشر؛ أي كما ورد بالمعنى الحقيقي، استعمل بالمعنى المجازي أيضاً. إذاً الحياة تتكون من حالات أو من أبواب ملموسة حقيقيّة وأخرى رمزيّة ينبغي أن تشرع. فمن وظائف الباب؛ الذهاب والإياب، الفضول الخارجي والتطلّع الداخلي، الحماية والعقاب والرقابة، الأمل، اليأس. ففتح الباب أو إغلاقه يكون دائماً مصحوباً بمجموعة من الانطباعات لذا للوقوف على بعض هذه الانطباعات نقوم بذكر بعض ما ورد من العرب عن "الباب". يتمتّع الباب في العقل العربيّ برمزيّة قويّة جدّاً، مثل ما تكون عليه العقليّات الأخرى. بالمراجعة إلى التراث العربي نرى أنّ العرب توسّعوا في مدلول الباب؛ حيث أخذوا يطلقون هذه الكلمة على معانٍ مجازية، لأنّهم وجدوا للحياة أبواباً غير أبواب البيوت، وللسّماء بابها الواسع و«على باب الله» تظهر الصّباحات عن الكثير من الحكمة والرّزق والصّبر والطّمأنينة، فالسّماء بابها فسيح للبشرية جمعاء، وهو من أكبر الأبواب الرّمزية التي عرفتها الإنسانية والذي يلتجئ إليه النّاس في مختلف الظّروف النّفسيّة. والحياة لها أكثر من باب. فثمّة «باب السّعادة» و«باب الرّزق» و«باب الصّبر» و«باب الأمل» و«باب الحبّ» وغيرها من الأبواب المختلفة التي تلجأ إليها البشرية في مسعاها اليوميّ، لتكون على صلة معها، وتحقّق حضورها النّفسيّ والاجتماعيّ في شبكة الحياة المعقّدة بغية أن تكون هذه المسمّيات الرمزيّة أبواب شروع نحو أمل يوميّ مرتجى. فالباب هو حقيقة وفي نفس الوقت رمز ومجاز؛ على سبيل المثال منذ القديم حتّى يومنا هذا فالباب كواقع ماديّ يعدّ أحد وسائل التّشخيص للغنى والفقر، فالأسر الثريّة تدلّ أبوابها الكبيرة والمزخرفة والمنقوشة بواقع حالها الاقتصادي؛ بينما أبواب البيوت الفقيرة تعيّن النّوع الاجتماعي والاقتصادي معاً لساكنيها ببساطتها الشّديدة وتشبّهها مع غيرها من ذات النّوع الاجتماعي.

فنظرا للشحنة الدّلاليّة التي يتمتّع بها "الباب" في التّراث العربي، جاءت الّدراسة بتتبّع دلالات هذه الكلمة في شعر السّيّاب، خاصّة وأنّ الكلمة تكون ذات وظيفة خاصّة في علاقتها مع الكلمات الأخرى في النّص. وكلمة الباب لحضورها الواسع في شعر السّيّاب حملت الكثير من انطباعات الشّاعر؛ لذا قام الباحث برصد هذه الكلمة وتحليلها من خلال السّياق الذي وردت فيه وذلك من خلال المحاور التّالية: دلالة الباب في الشّعر الحديث، أسباب التّداول الموسّع لكلمة الباب في شعر السّيّاب، الأنساق الدّلاليّة لدالّ الباب في شعر السّيّاب بشقيها الإيجابية والسّلبيّة.

٢-إشكالية البحث وأهدافه

يقتصر البحث الحالي على مناقشة لفظ "الباب" في شعر السيّاب؛ الدالّ الذي ما يكاد يرد في قصيدة

من قصائده إلّا وأسبغ عليه دلالة تحمل انطباعاً من انطباعات البشر. فبهذا الحضور الواسع يمكن القول أنّ الباب ليست مفردة بحسب، بل بولوجها في بنيات لغويّة في شعر الشاعر احتضنت الرمز ونمّته؛ واحتفظت بفضاء واسع في تكوين وتجلّي بعض رؤى الشاعر، كما وأنّها ساعدت الشاعر على البوح بانطباعاته في ثنائيّات ضدّيّة؛ بعضها إيجابيّة والأخرى سلبيّة. وكلّ منها تكشف لنا عن الظروف العصيبة التي مرّ بها السيّاب، كما وأنّها تساعدنا على فهم نصّه الشعريّ.

إذن تسعى هذه الدراسة إلى البحث عن الأسباب التي جعلت السيّاب أن يتوجّه بفكره إلى هذا الدالّ وإدراجه ضمن فضائه الشعري، وكذلك التعرّف على الأساليب التي مكّنت السيّاب من رصد المفاهيم التي تنطوي عليها كلمة "الباب"، وأخيراً الإلمام التطور الدلالي لكلمة "الباب" التي كان لها حضور واسع في شعر السيّاب.

اتّبع الباحث في البحث منهجاً استقرائيّاً تحليليّاً، حاول فيه التقاط التطور الدلاليّ لهذه الكلمة في نصوص الشاعر، وذلك عبر اختيار مقاطع شعريّة حضرت فيها الكلمة، إضافة إلى تحليل البنية اللغويّة وبعض الظواهر الأسلوبيّة المسخدمة في هذه المقاطع والتي ساعدت على تنمية هذا التطوّر الدلالي بغية الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما هي أسباب الحضور الموسّع لكلمة الباب في شعر السيّاب؟
- ما هي الأقطاب الدلاليّة الخاصّة بالباب التي تمحورت عليها رؤية السيّاب ؟
- كيف كانت رؤية السيّاب إلى تداول كلمة الباب في شعره؟

٣-خلفيّة البحث

من الدراسات المرتبطة بالبحث الذي بين أيدينا، كتاب "**جماليّات المكان في شعر السيّاب**" لمؤلّفه ياسين النصير. و دراسة لطيف محمّد حسن تحت عنوان "**الفضاء الشعري عند بدر شاكر السيّاب**". رغم أنّ الدراستين قامتا بتحليل الفضاء الشعريّ للسيّاب داخل النصوص ورصفه في حقول وأنساق دلاليّة متعدّدة. إلّا أنّها جاءت *ضنينة* ولم تتبّع كافّة كافة دلالات الباب كدالّ قام السياب بشحنه بتلك الدلالات معتمدا على التراث العربيّ، وما *جاء* بها لا يعدو شذرات مقتضبة لا تعطي صورة واسعة تلمّ بكافّة الشحنات الدلاليّة التي يتمتّع بها "الباب" في شعر السيّاب، فجاءت الدراسة هذه بتتبّع دلالات هذه الكلمة في شعر السيّاب، خاصّة وأنّ الكلمة تكون ذات وظيفة خاصّة في علاقتها مع الكلمات الأخرى في النصّ كما وتأتي أهمّيّة بحثنا في تسليط الضوء على التقنيّات والأساليب التي استخدمها الشاعر لخلق فضاء شعريّ مناسب استطاع أن

يفجّر من خلاله المعاني التي تنطوي عليها لفظة "الباب".

٤-دلالة الباب في الشعر الحديث

ونرى نفس هذه الانطباعات عند الشعراء المعاصرين حيث قاموا باستخدام نفس التعابير، بل نوّعوا فيها واستعملوها بكثافة لافتة في قصائدهم ولم تكن إلّا تعبيراً عن لحظات أمل، وانهزام، وبكاء، وندم، وضياع، وانكسار وسقوط وما ذلك؛ مثل هذا التعبير الرائع لمحمود درويش عندما تماهى مع آخر ملوك غرناطة قائلاً: كَيْ أَمُرَّ غداً قُرب أَمْسي. سَتَرفَعُ قَشْتالَةُ/ تاجَها فَوْقَ مِئْذَنَة الله. أَسْمَعُ خَشْخَشَةً لِلْمَفاتيحِ/ في بابِ تاريخنا الذَّهَبِيِّ، وداعاً لِتاريخنا، هَلْ أَنا /مَنْ سَيُغْلِقُ باب السَّماءِ الأَخيرَ؟ أَنا زَفْرةُ الْعربِيِّ الأخيرَةْ (درويش، ٢٠٠٥م، ج٣: ٢٧٨).

إنّ درويش يرى شعبه في التيه والآن يتحسّر على ما كان عليه شعبه من مجد؛ حيث بقى في حسرة على باب يفتح عليه ذلك الازدهار التي مرّت به الأمّة العربيّة. هذا العبقريّ يفتح نصّه الشعريّ ليتناصّ مع المذخور الشعبيّ في هذا المجال؛ حيث يستوعب المثل الشعبيّ القائل: "البابُ اللِّي يجيكْ مِنَّه ريحْ سِدَّه وَاسْتَريحْ[١]" ؛ استيعاباً تامّاً، ويظهر موقّفاً في صهره في صلب نصّه الشعريّ، حيث زاوج بين مفهومين لكلمة "الباب" واتّخذ من الباب بؤرة أمل لشعب كابد أهوالاً، وحُطّمت قراه، وعانى من التشريد بعد أن كانت رمزاً للشرّ والمشاكل في النصّ الموروث وذلك بإيلاجه في فضاء لغويّ يدلّ على الأمل؛ حيث نرى علامات الحياة في المستقبل تتراصف بتكرار لفظة "مازال" فى كلّ مقاطع القصيدة لتفتح باب الأمل للشعب الفلسطينيّ المنكوب والكلمة هذه تدلّ على البقاء، كما أنّ الأمل يأخذ معنى شاملاً في التعابير التالية؛ مثل: وجود الجنين في الأحشاء، والحطب في الموقد، والدّماء في القلوب، والحصير في البيوت، وشيء من العسل في الصحون، فكلّ هذه التعابير تعني على الترتيب: استمرار الحياة، والدفئ والإنارة، والثورة من أجل مسقبل زاهر، والتمتّع بحلاوة الحياة، وحتّى احتفاظ البيوت بالأبواب، يكسي دالّ "الباب" مسحة من الأمل؛ لأنّه مادامت الأبواب موجودة على البيوت فلا أحد يستطيع اقتحامها؛ لهذا يأمرهم بغلقها بفعل حركيّ ليستعيد فيهم الحركة وروح النضال:"ما زال في صحونكم بقيّة من العسل/ردوا الذباب عن صحونكم/لتحفظوا العسل/ما زال في بيوتكم حصيرة .. وباب/سدوا طريق الريح عن صغاركم/ليرقد

١- يضرب هذا المثل انّه إذا هناك أمر يأتي لك بالمشاكل فعليك قطعه وبتره والتخلّص منه حتّى لا تدخل في مشاكل أي نحن لا نعرف عاقبة الأمور ويفضل إغلاقها (بعضها) حتّى لا تحدث أمور أنت لا تتوقّعها وتندم عليها يعني إن تلوم نفسك وتقول ولو فعلت كذا لما حدث هذا.

الأطفال/الريح برد قارس .. فلتغلقوا الأبواب/ما زال في قلوبكم دماء/لا تسفحوها أيّها الآباء/فإن في أحشائكم جنين/مازال في موقدكم حطب" (نفس المصدر، ج١: ٢٢).

هذا المعنى عند البياتي يتحوّل إلى هاجس الاغتراب والترحال، إذ يبيّن حال اللاجئين ويجسّم واقعهم المرّ ويسأل عن لسان الإنسان الغريب اللاجئ. فالاغتراب والترحال هيمن على النصّ وشحن دالّ الباب بهذه الشحنة وشكّل الباب بوصفه مطروقاً بالنسبة إلى الإنسان الفلسطينيّ المشرّد عتبة مكانيّة تدلّ على السأم والملل، فالواقف وراءها ينتظر الخروج من مرارة الاغتراب التي أخذ يحسّ بها بكلّ وجوده حتّى أنّه اعتبر هذا الاغتراب موتاً: "ليلَ المنافي في محطات القطار بلا عيون/يبكون تحت القُبعاتِ ،/ويذبلونَ ،/ويهرمون/يا مَنْ رأى "يافا" بإعلانٍ صغيرٍ في بلاد الآخرينِ/يافا على صندوق ليمون معفرة الجبين/يا مَن يدق البابَ ،/نحن اللاجئين/مُتنا/" (البياتي، ١٩٩٥م، ج١: ٤٢٤).

ونرى نفس الشحنة الدلاليّة لدالّ "الباب" عند سميح القاسم، خاصّة وأنّه كفلسطينيّ كابد مرارة العيش، ينصّ على معاناته من الصعاب والأهوال مبيّناً كلّ الظروف التي تجبر الفلسطينيّن على الهجرة: "أماه إنّ بقاءنا في هذه الأرض انتحار/السوس في كتبي...وفي قلبي يغيم الاحتضار/أمّي...طحنت الماء في المقهى/ومسحت كلّ موائد الملهى/ وطردت من باب إلى باب/ وتهرأت نعلي وأثوابي/ وشتمت في صلف/ وطعنت في شرفي".(القاسم،١٩٨٧م: ٤٥٥-٤٥٦). وفي عمليّة فنّيّة رائعة بالرجوع إلى الماضي يذكّرنا بالمدلول التراثيّ لدالّ "الباب"؛ حيث كان يدلّ على الكرم، إحدى الشيم العربيّة التي كانت العرب تفتخر بها، بينما الآن بسبب الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين، يحمل الباب وجهاً جديداً من انطبعات البشر حيث يصبح صنو البيت بل الكيان والأرض الفلسطينيّة، أيّ الخطّ الأحمر الذي ثارت حفيظة سميح من أجله، فأخذ يدعو شعبه للمقاومة ومناهضة الاحتلال في كلّ أرض الوطن بحدودها المعروفة وكافّة مقوّمات الوطن السّياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة: أنا قبل قرون/لم أطرد من بابي زائر/وفتحت عيوني ذات صباح/فإذا غلاّتي مسروقه/ورفيقةُ عمري مشنوقه/وإذا في ظهر صغيري... حقل جراح/وعرفت ضيوفي الغدّارين/فزرعوا ببابي ألغاماً وخناجر/وحلفت بآثار السكّين/لن يدخل بيتي منهم زائر/في القرن العشرين! (نفس المصدر: ٣٨)

كما رأينا قد أكثر الأدباء في أعمالهم الأدبيّة من استخدام دالّ "الباب"، فكان وجوده جليّاً في الأدب الحديث والمعاصر، إذ يعدّ من الثيمات العصريّة التي اشترك فيه معظم الشعراء المعاصرين، وكان مصدر اهتمامهم فركّزوا عليه في أشعارهم وشحنوه برموز وأبعاد ودلالات مختلفة، ليصبح ذات دلالات فكريّة. وذلك لأسباب عديدة سنقوم بذكر بعضها عند مناقشة القضيّة في شعر السياب.

٥-أسباب التداول الموسّع لكلمة الباب في شعر السيّاب

بعد الوقوف على بعض ما ذكرناه من مفاهيم ومعان رمزيّة ودلالات مجازيّة لكلمة الباب عند الشعراء المعاصرين، نقصد مناقشة تطوّر هذه المفاهيم المجازيّة لكلمة الباب عند السيّاب. السيّاب كنظرائه من الشعراء المعاصرين اتّجه إلى توسيع استعمال هذه الكلمة سواء من حيث العدد، أم من حيث الدلالة، وذلك عبر إيلاج هذه الكلمة في بنية لغويّة تحتضن المجاز والرمز وتنمّيهما. فأصبحت متداولة في معجمه الشعري، وأخذت تدلّ على عدّة مفاهيم بعضها إيجابيّة والأخرى سلبيّة. بالواقع "الباب" ليست مفردة فحسب بل هي انطباعات وانفعالات يمكن رصدها بذكر مصاديق من شعره. وفيما يلي حاول رصد ومناقشة بعض هذا التداول المجازي لهذه الكلمة لدى السيّاب، وذلك عبر دراسة قطع من النصوص الشعريّة التي وردت فيها هذه الكلمة. لكنّ قبل مناقشة تلك المفاهيم ورصدها؛ تجدر بنا الإشارة إلى بعض الأسباب التي أدّت إلى تداول كلمة الباب بصورها المختلفة واستعمالها الموسّع في شعر السيّاب.

كما هو معروف أنّ حياة السيّاب كانت مليئة بالأحداث، وتركت هذه الأحداث أثراً بالغاً مفعماً بالحزن؛ فأوّل هذه الأحداث أنّ الشاعر منذ طفولته جرّب همّ اليتم؛ حيث فقد كلّاً من أمّه وجدّته اللتين (بلاطة، ١٩٨٧م: ٢١) كانتا مصدرين للعطوفة، الأمر الذي سلب منه الطمأنينة والحنان وخرّب كلّ الآمال التي كان من الممكن أن يبني حياته عليها. وما كاد أن يتخلّص من اليتم إلّا ولحقه ضياع الحبّ الذي وقع فيه في سنّ مبكّرة (البيرماني، ٢٠٠٨م: ٥١) وتكرّر هذا الضياع مرّة أخرى عند خسارتة "هيلة"(نفس المصدر: ٥٤) تلك الفتاة التي احتلّت مكانة ممتازة في نفس السيّاب بين اللواتي كان يحبّهن لعلّه يجد فيها صورة الحبيبة والأمّ التي حرم منها ولازمه هذا الفشل فيما بعد مع كلّ من لبيبة؛ المعروفة عنده بذات المنديل الأحمر (نعمان، ٢٠٠٦م: ٣٦) ، ولميعة عباس عمارة التي تعرّف عليها وهو في مطلع السنة الثالثة من سني دراسته في دار المعلّمين(نفس المصدر: ٤١)، فكتب السيّاب قصائد في هذا الحبّ الفاشل المرير الذي جرّبه عدّة مرات في صباه، وظهر متألّماً بذلك الحبّ الفاشل حتّى بعد زواجه، الأمر الذي أورثه طول حياته "العيش في خيبة أمل كبرى، وذلك لعدم تحقيق النجاح بعلاقاته العاطفية، ولذلك صوّر في قصيدته التي تحمل عنوان (شاعر) لوعة المحبّ وعذابه وآلامه وآهاته، إذ غنّى ليصطاد حبيباته ولكنه لم يصطد منهن إلّا الأسماء، مما ترك في داخله خيبة نفسيّة وشعورًا مريرًا بالألم."(علوان الكناني، ٢٠١١م: ٩٦).

المسألة الثالثة التي عانى منها السيّاب طول حياتة هي قضيّة الفقر والشظف في العيش. إنّ السيّاب ولد في عائلة متوسّطة العيش يتحكّم بمجتمعها الأقطاع، الأمر الذي أثقل كاهل الشعب وضيّق عليهم

الحياة. هذا وأنّ شخص السيّاب لم يثبت في وظيفة معيّنة وظلّ يتنقّل في وظائف متعدّدة بسبب انفصاله من الوظيفة الحكوميّة التي كان يمتهنها لقضايا سياسيّة، فهذه المسألة نفسها ضيّقت عليه الحياة.

زد على ذلك مرضه "نشأ السيّاب مع المرض منذ طفولته حتى قضى عليه ولمّا يتجاوز الأربعين من عمره، فمرض السلّ قضى على شبابه وصحّته وقلبه، هذا وأنّه ما كان يستطيع توفير ثمن العلاج؛ حيث كان "مريضًا يفتش عمن يدفع له أجرة مبيت في فندق؟ وعن طبيب يرضى أن يعالجه إكرامًا للأدب "(جبرا، ١٩٧١م: ٨٣) ولقد انطبعت في نفسه آلام شعبه السياسيّة والاجتماعيّة، منها ما يتّصل بظلم الحكّام للناس وبمشاكل المرأة وحقوقها ومشاكل الفقر والمرض والبؤس، ف "ان بدراً معنيًا بالقضايا العامّة على نحو جارف عنيف، شعره حتى أواخر عام ١٩٦٠م أي ذلك الشعر الذي حصر أجوده في ديوان (أنشودة المطر)- أنّما هو في قرارته شعر القضايا العامّة: هو شعر الاحتجاج والأسى والغضب على ما يقع في العراق أو العالم العربي" (نفس المصدر: ٢٣) ، وللسيّاب شعر اجتماعي كثير صوّر فيه النماذج البشريّة الفقيرة الكادحة والمعدمة في الحياة، داعيًا إلى تبني قضيتها والاهتمام بها، ومن أبرز تلك النماذج التي تناولها في قصائده هي (المومس العمياء، حفار القبور، الأسلحة والأطفال، المخبر، حسناء القصر، غريب على الخليج، ابن الشهيد). فإنّه ظل إلى آخر لحظة يقف بعمله وشعره في طليعة الأحرار المكافحين عن آمال الأمّة العربيّة.

٦–الأنساق الدلاليّة لدالّ الباب في شعر السيّاب

الأسباب المذكورة آنفاً، أدّت إلى تمحور رؤية السيّاب الخاصّة بالباب داخل الأقطاب التالية: "المرض، الغربة، الظلم الناتج عن الاستبداد والاستعمار، الفقر والحبّ. لمّا كانت تلك الأقطاب منحته إحساساً خاصّاً يشير إلى تجربة الشاعر في صراعه مع المرض وحبّه الفاشل والفقر الاقتصاديّ والظلم الذي عاناه السيّاب في حياته. الأمر الذي سبّب له أزمة نفسيّة حادّة؛ حيث رأى "إخفاقات متلاحقة في مجال الحبّ والسياسة والاجتماع والاقتصاد" (محمد حسن، ٢٠١١م: ٢٨-٢٩) مما أدّى إلى جملة تطوّرات دلاليّة أصابت كلمة "الباب" في شعر السيّاب بعضها ايجابيّة والأخرى سلبيّة. فإنّه رأى في الباب الأمل والانفتاح على مستقبل زاهر والانطلاق، كما رأى الانسداد واليأس، ورأى فيه الانتظار ، ورأى الأمان والخوف، ورأى القرار والاضطراب، ورأى الاتّصال والانفصال ورأى الضيافة ورأى الانطوائيّة وأمثال ذلك من دلالات عهدتها الذاكرة الشعبيّة والتراث. كما نلاحظ هذه الرؤية بالنسبة إلى تداول كلمة "الباب" شكّلت ثنائيات ضدّية حاول السيّاب أن يلمّ بجميع الأبعاد الدلاليّة التي تنطوي عليها هذه الكلمة في النصّ. يمكن استقرار هذه الدلالات على قسمين: قسم خاصّ بالرؤية الإيجابيّة والآخر بالرؤية السلبيّة.

٦–١–الدلالات الإيجابية

تتمحور رؤية السيّاب الإيجابيّة الخاصّة بالباب داخل الأقطاب التالية؛ الوقوف والانتظار، والحفظ والأمان، والخروج من الحرمان، والعمار والخراب، والملجأ وما إلى ذلك حيث رأى في الباب علامات

إمكان الحياة في المستقبل تتراصف أمام أعينه في حالة خيّم اليأس على أفكاره.

٦-١-١-الأمل والانتظار

حظي مفهوم الانتظار بصدى واسع في أشعار السيّاب، منها قصيدة"مدينة السراب"؛ السيّاب في هذه القصيدة يقرّ بانفصاله عن حبيبته؛ حيث لم يعد يراها بعد، فيقف بانتظارها ولا يبرح أبوابها بل يقف خلفها وقفة منتظر يقول: "إليك يا مدينة السراب، يا ردى حياتها/ عبرت أروبّا إلى أسيه/ وما انطوى النهار،/ وأنت يا ضجيعتي، مدينة نائية/ مسدودة أبوابها وخلفها وقفت في انتظار." (السيّاب،٢٠١٢م، ج٢: ٢٣٩)

مما يلفت النظر أنّ السيّاب صاهر بين زوجته وموطنه الحامل لذكرياته والمصدر للخيرات والبركة فمازج بينهما لتلاقيهما في صفات شبيه، فيحقّ لها أن يخاطبها السيّاب بعد انتظار طويل بهذا الخطاب: "يا أقرب الورى إليّ أنت يا رفيقة" إلّا أنّ السفر تمطّى وبدا طويلاً حتّى أصبح الوصل كالسراب على السيّاب، فأخذ الانتظار في الغربة يفتّت جسمه النحيل، ورأى نفسه وراء سور يفصله عن مدينته/وفيقة، ووقف في انتظار فتح الأبواب المسدودة دونه ليلتقي بها بعد طول وعناء. ويتكرّر الوقوف أمام الباب عند السيّاب في قصائد أخرى، ونراه لا يزال في انتظار الولوج لتحقيق ما قد فقده في طفولته وحياته. فيجعل نفسه الطارق والمستجدي والمحتاج إلى مأوى المحبّة والحنان والاستقرار، إلّا أنّ وقوفه دون جدوى، لا يردّ عليه أحد. إنّ القصائد التي جسّدت هذا المعنى كثيرة؛ منها: "الأمّ والطفلة الضائعة"(نفس المصدر : ٢٣٢) و "أمام باب الله"(نفس المصدر: ٢١٩) ، و "مدينة السراب" (نفس المصدر: ٢٣٨) ، و "سفر أيوب٨" (نفس المصدر: ٣٢١) ، و "إرم ذات العماد" (نفس المصدر: ٣٤٩) ، و "إقبال والليل" (نفس المصدر: ٤٣٩) و "رسالة" (نفس المصدر: ٤٣٣).

٦-١-٢-الحفظ والأمان

الغاية الأصلية من صنع الباب هي الحفظ والأمان؛ حيث يقي الإنسان الحرارة والبرودة الشديدة، كما يحفظه من مداهمة الشرور أيّاً كانت تلك الشرور. السيّاب في قصيدة "المعول الحجري" أجاد استخدم هذه الدلالة للباب، فإنّه رأى نفسه شيئاً فشيئاً يقترب من الموت المخيّم على ذاكرته في أيّامه الأخيرة. ورأى المستقبل الرهيب يقبل عليه بمعوله يريد مداهمة زمنه الحاضر حاملاً معه المعول بقصد هدم كلّ ما استخدمه للمحافظة على نفسه، من سور منيع وأبواب محكمة وآجرات متظافرة. فهذا الاقتحام العنيف للموت المداهم، يدمّر رؤيا الشاعر ويمزّقها شرّ ممزق ويسلبها الأمان ويجعل ذاكرته تضطرب أيّما إضطراب: "رنينُ

المعولِ الحجريّ في المرتجِّ من نبضي/ يدمّرُ في خيالي صورةِ الأرضِ/ ويهدم برج بابل، يقلع الأبواب، يخلع كلّ آجرَّة/ ويحرق من جنائنها المعلّقة الذي فيها/ فلا ماءٌ ولا ظلٌّ ولا زهرةْ/ وينبذني طريداً عند كهف ليس تحمي بابه صخرةْ" (السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ٤٢٧). درج أفعال مثل: "يدمّر، ويهدم، ويحرق، وليس تحمي" في معجمه الشعري من جانب، ثمّ المجئ بها على صيغة المضارع الذي يدلّ على الحدوث، من جانب آخر.

٦-١-٣-الخروج من الحرمان

تجلّى كره السيّاب للأبواب المغلقة في عدّة قصائد؛ كأنّه يريد الخروج من العزلة والانطوائيّة، والهروب من الاستسلام للأمر الواقع؛ لذا صرّح بفتح الباب كبركان متمرّد على الواقع ويريد الخروج من السكون النهايي؛ وهو الموت، ويصرّ على الحركة والانطلاق كارهاً الأبواب المغلقة التي تمنعه من الانطلاق.(محمد حسن، ٢٠١١م: ١٨٦) حتّى لو كان السير ينتهي به إلى الهلاك. إذاً فتح الأبواب عند السيّاب يعني الانطلاق والحريّة والخروج من الحرمان، كما أنّه عبّر عن هذا المعنى مبيّناً كرهه للأبواب المغلقة في القصيدة التالية بصور مختلفة؛ حيث في المرّة الأولى استخدم الاستفهام الإنكاري وصرخ بوجه موكّل أبواب سقر طالباً منه أن يترك الأبواب مفتوحة: "صرخت بوجه موكّلها/ لم تترك بابك مسدوداً؟/ ولتدع شياطين النّار/ تقتصّ من الجسد العاريّ"(السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ٤٢١) ثمّ يتبع عدم استسلامه للسكون على سبيل الاستعلاء باستخدام فعل الأمر وهو أشدّ قوّة من الأستفهام لما فيه من إلزام، فيقول: "وافتح بابك لا تترك أمام شقائي مسدوداً/ ولتحطّم جسمي النار"(نفس المصدر) الأمر الذي جعل السيّاب أن يتوجّه بفكره إلى هذه القضيّة لكي يخرج من الانطوائيّة والتقوقع الذي كان عليه، إنّ السيّاب في قصيدة "**في الليل**" يصف هذه العزلة والانطوائيّة بشتّى الصور، إنّه يستعير انسداد الأبواب لهذا المفهوم، وغلق الباب في الذاكرة الشعبيّة عادةً يدلّ على الانطوائيّة. هناك صور أخرى في هذه القصيدة تسعف هذا المعنى؛ منها التنصّت والستائر المرخاة، فضلاً على ذلك أنّ الملابس السوداء التي يرتديها المفزّع في البستان تجسّد الانطوائيّة بالتمام. لذا يتوجّه بكلّ قواه إلى الباب وما يؤدّيه من وظيفة عند انفتاحه. إنّ انفتاح الباب بإمكانه أن يخلّصه من ظلام التقوقع الدامس والعزلة المدلهمّة، وحتّى تلك الملابس التى حاكتها العزلة عليه. فلذا بكلّ شوق يترقّب فتح الباب لكي يتخلّص من العدمه وينتعش إحساس الوجود فيه.

كثيراً ما يعطي السيّاب دلالة إيجابيّة للباب، خاصّة عندما يوظّفه في معجم شعريّ تلعب فيه الاتّجاهات المكانيّة مثل خلف ووراء وما يشبهها دوراً رئيسيّاً في إثراء هذا الدالّ بالخروج من الحرمان الذي

كان يعاني منه السيّاب. لأنّ هذه الدوال المكانيّة في أصلها اللغويّ تدلّ "على الإهمال والإدبار، فإنّه بإمكاننا أن نقول أنّ هذه الدلالة السلبيّة تبقى في استعمال السيّاب للمفردة غالباً إذ أنّها تأتي في أغلب استعمالاتها مصاحبة للحواجز على غرار أمام بوجه الذات حينما تكون الغايات خلف حجاب أو حينما تكون ذات الشاعر متروكة وراء الحواجز المانعة" (محمد حسن، ٢٠١١م: ٢٠٨) على سبيل المثال السيّاب في قصيدة "الباب تقرعه الريح" يكدّس في معجمه الشعري من الدوال التي تدلّ على الحواجز الصلدة والمعتمة؛ مثل: السور، وحجار، وعدم وجود نوافذ والأبواب. فهذه الحواجز تدلّ على وجود غايات خلفها، من هنا تظهر أهمّية الأبواب، حيث تبدو الأداة المخلّصة للذات المحرومة من النعم الفطريّة التي تمتّع بها غيره من الناس وهي العطوفة والحنان، فرؤية السيّاب للباب كما نرى في المقطع التالي رؤية إيجابيّة، حيث بدا كوسيلة يستطيع من خلالها الوصول إلى ما حرم منه طوال عمره وسبب هذا الحرمان كما يصرّح هو عدم وجود الباب: "أمّاه ليتك لم تغيبي خلف سور من حجار/ لا باب فيه لكي أدقّ ولا نوافذ في الجدار" (السيّاب، ٢٠١٢، ج٢: ٣٩٣). إنّ الأساليب المستخدمة في هذا المقطع، تظهر لنا أنّ السيّاب يستهدف تحكيم هذه الدلالة الإيجابيّة للباب؛ حيث أنّه أخذ ينادي مصدر الحنان وهو الأمّ المفقودة في الطفولة زد على ذلك أنّه يتحسّر على غيابها خلف سور منيع لا كوّة فيه، تشعّ منها أشعة الأمومة ليظهر لنا ضرورة وجود باب يخلّصه من الحرمان الذي عانى منه طوال حياته.

٦-١-٤-الملجأ

بما أنّ السيّاب عانى الكثير من الحرمان والفراق، حاول اتّخاذ الباب ملجاءاً ومنفذا يوفّر له الحنان الضائع والحبّ المنشود، فلتجسيد هذا المعنى عمد إلى شحن كلمة الباب بهذه المفاهيم إذ قام باستخدامها في فضاء مفتوح؛ أي جعل نفسه واقفاً خارج البيوت متوقّعاً انفتاح الأبواب ليسمح له بالدخول أو ليخرج إليه من في الداخل (محمد حسن، ٢٠١١م: ٤١) ولتبيين حالة حرمانه وفراقه جعل نفسه في الأماكن المفتوحة والممتدّة التي تفتقر إلى إعطاء الذات بعداً حميميّاً كالصحراء والبحار، لشساعة هذه الأماكن وضخامتها التي تشعر الذات بالضياع والحرمان (نفس المصدر :٤٢) وحاول أن يكون المعجم الشعري مؤاتياً لتوجيه معنى الضياع والبحث عن الملجأ الذي يخلّصه من هذا الضياع؛ على سبيل المثال في قصيدة "شبّاك وفيقة" يودّ فتح الأبواب للخلاص من حالة الضياع: أطلّي فشبّاكك الأزرقُ/سماءٌ تجوعْ،/ تبيّنتُه من خلال الدموعْ/كأنّي بي ارتجف الزورق/ ففي الشاطئين احضرار/ وفي المرفأ المغلقِ/ تصلّي البحار./كأنّي طائر بحرٍ غريب/ طوى البحر عند المغيب/ وطاف بشبّاكك الأزرق يريد التجاءاً إليه (السيّاب، ٢٠١٢م،

ج٢: ٢٠٨).

وهذا التوقّع يتجسّد باستخدامه فعل الأمر الذي يحمل دلالة لغويّة من الآمر على سبيل الاستعلاء في فتح الباب المغلق حصولاً على ما فقده من حبّ وحنان في حياته (نفس المصدر) يمكن أن نتلمّس هذا الضياع والحرمان من كلّ هذه الكلمات: "سماء تجوع، مرفأ مغلق، البحار، الطائر الغريب الذي يحوم في البحر، كأنّي بي ارتجف الزورق" فكلّ هذه الدوال تدلّ على هيام ذات الشاعر المضطربة التي قامت بالطواف حول باب مغلق يريد فتحه للخلاص ممّا هو عليه من غربة وحرمان.

٦-١-٥-العمار والخراب

من الدلالات الإيجابيّة التي يتحلّى بها الباب هي صفة العمار والزينة؛ حيث أنّ الإنسان نظر إليها بعين الاعتبار وعدّها غاية بجانب الغايات الأخرى. فراح يتفاخر بها. فامتلاك البيوت وتزويدها بالأبواب يعني المدنيّة والثراء وفقدان البيوت للأبواب يعني الجدب وفقدان كلّ شيء، وقد أحسن السيّاب عند توظيفه دالّ الباب في قصيدة يسودها الجدب واليباب: "خرائب فانزعِ الأبواب عنها تعدُّ أطلالا،/ حوالٍ قد تصكّ الريحُ نافذةً فتُشْرعها إلى الصبحِ/ تطلُّ عليك منها عينُ بوم دائم النّوْحِ" (السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ٣١٨)

وفي استخدام كنائيّ لدالّ الباب، يلوّح إلى إحدى الدلالات التراثيّة الإيجابيّة التي تنطوي عليها ثنائيّة انغلاق الباب وانفتاحه، وقد صرّحت المعاجم بهذا التوظيف الكنائيّ لدالّ الباب؛ حيث يقال:" فلان فتح بيته لفلان؛ أيّ رحّب به وأحسن استقباله"(عمر،٢٠٠٨، ج١ : ١٦٦٤)فالسيّاب بعد شعوره بالضياع، يسترجع ومضات اكتنزتها ذاكرته عن طفولته التي تأرجحت بين السرور واللعب حيناً، والحزن والحرمان حيناً آخر. حسب تصريح السيّاب في شعره إنّ أسرته لم تكن فقيرة، ودار جدّه كانت كبيرة وعامرة؛ حيث كان يتوافد إليها الناس، كما أشار إلى هذه القضيّة واصفاً الدار بكثرة النوافذ والجرار التي كانت تملأ بالماء، الأمر الذي يدلّ على كثرة الضيوف، بينما اليوم أصاب الجدب تلك الدار فأصبح بابها مغلق وعلاها الغبار حتّى غدا ابنها غريب عليها وأصبح هو نفسه كأحد الوقّاد، يستجدي منها طفولته وشبابه لشعوره بالضياع: "مطفأة هي النوافذ الكثار/ وباب جدّي موصَدٌ وبيته انتظار/ وأطرق الباب، فمن يجيب، يفتح؟/تجيبني الطفولةُ، الشباب منذ صار،/ تجيبني الجِرار جفّ ماؤها، فليس تنضح "(السيّاب٢٠١٢، ج٢: ٢٢٥)

٦-٢-الدلالات السلبيّة

قام السيّاب بتوظيف دال "الباب" توظيفاً رمزيّا سلبيّاً يقابل الوجه الأوّل؛ حيث تجد إغلاق الباب

عنده بمعنى العجز، والحرمان، والفشل، والعجز، والمانع، واليأس، والخوف، وجفاف المحبّة وسلب الحريّة، إنّها صور مكبوحة، مقطوعة السبل لا أمل في انتعاشها وهي لم تكن إلّا نتيجة للظروف التي مرّ بها السيّاب، وتشير إلى تجربة الشاعر في صراعه مع المرض وحبّه الفاشل، والفقر الاقتصادي والظلم الذي عاناه السيّاب في حياته.

٦-٢-١-الحرمان

أحياناً غلق الأبواب يعني الحرمان من مواهب الحياة؛ منها الحرمان من لقاء الأحبّة والأهل والمحبّة والحنان؛ الأمر الذي عانى منه السيّاب طوال حياته والآن نراه متجلّياً في هذا المقطع من قصيدة "أسير القراصنة" والمعنى هذا يلوح ظاهراً من عنوان القصيدة، حيث يختار الشاعر لفظ الأسير ولا نرى أدلّ من هذا اللفظ على معنى الحرمان؛ لأنّ الإنسان يحرم من المحبّة وهي أكبر موهبة منحه الله إيّاها؛ لذلك يقول: "وأنت لا حبٌّ ولا دارُ،/ يُسْلمك المشرقُ/ إلى مغيبٍ ماتت النارُ/ في ظلّه... والدرب دوّار / أبوابه صامتة تُغلق!"(٢٠١٢م، ج٢: ٤٠١).

كلّ الدوال في هذا المقطع الشعري تشير إلى الحرمان؛ من فقدان الأحبّة والملجأ، والإقامة في زنزانة لا علم للإنسان باختلاف النهار والليل فيها، إلى الحركة الدائريّة في الزنزانة والباب الذي لا يُطرَق كلّها تشير إلى الحرمان من مواهب الحياة ومن ضمنها العطوفة والحنان. وأيّ دالّ أحسن من دالّ الباب للبوح بهذا المعنى؛ حيث إذا أرادوا حرمان شخص، يقومون بإغلاق الأبواب عليه ويدخلونه في حركة دائريّة تتكرّر أحداثه عليه؛ فهذا الشاعر رأى نفسه محروماً بشكل متكرّر منذ صباه حتّى آخر لحظة من حياته محروماً من تلك المواهب وأصبح حاضره مثل ماضيه على مدار الزمن (محمد حسن، ٢٠١١م: ٢٧٨). يقوم السيّاب أحياناً بإدخال الباب في فضاء شعريّ يشحنه شحنة ينمّ عن استحكامه وعجز ذات الشاعر أمام هذا الباب المحكم؛ مثل قوله:"منطرحاً أمام بابك الكبيرْ/ أصرخ، في الظلام، استجيرْ:/...... / منطرحاً أمام بابك الكبيرْ/ أحسُّ بانكسارة الظنون في الضمير" (السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ٢١٩).

إنّ انتساب الانطراح والانكسار إلى ذات الشاعر من جانب واتّصاف الباب بصفة الكبير، يعني الضخامة والاستحكام وهذا يوحي الانغلاق الذي لا قِبَل للسيّاب أن يدخل عتبة هذا الباب المنيع، كما أنّ كلّاً من الصراخ والانطراح والانكسار يدلّ على عجز ذات الشاعر عن الدخول والاستمتاع بالمواهب وفي نفس الوقت على الانغلاق.

٦-٢-٢-الحاجز والمانع

"أمّا الباب، فهو المدخل السرّي لاجتماعية البيت، لكنّا نجده باباً موصدا، يحاكي انغلاقيّة النافذة، ولأنّه موصد دائماً فهو حاجز ومانع نفسي مشرب بحسّ اجتماعي، يتحوّل في قصائده إلى فعل كابح. أمّا وراء الباب فكلّ شيء متّصل بالأسرار: الموت والعدم والطفولة وقد ارتبطت بالأنا، أنا السيّاب القاعدة في العتبة." (النصير، ١٩٩٥م: ١٩٣) وإذا نلاحظ السيّاب كثيراً ما يقرن الباب بالسور المنيع، فتلك تعدّ محاولة منه لكي يكسيه صفة الباب ويصبح عازلاً ومانعاً، بعد أن كان مدخلاً ووسيلة للانتقال من الداخل المعزول إلى الخارج المفتوح، فبذلك اتّخذ الباب طابع المواجهة المباشرة والعزلة. وأصبح يحكي وضع السيّاب النفسيّ. فالغربة، والخوف، والمرض، والمراقبة السياسيّة وتخلّي الأصدقاء ومعاداتهم له وشحوب التيّارات العربيّة أو الأجنبيّة التي كانت يتوقّع منها المساعدة فكلّها كانت لبنات ذلك السور المنيع واللوحات المرصوصة لذلك الباب المرصود، "والسور الذي وقف أمامه نفس السور الذي يقف حاجزاً أمام طموحات العراق وجيكور" (النصير،١٩٩٥: ٢٠٩) : "أحِنّ لريفِ جيكورِ..../ وأحلم بالعراق: وراء بابٍ سدّته الظّلماءُ/ باباً منه والبحر المزمجرُ قام كالسورِ/ على دربي "(السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ٣١٢).

وفي مكان آخر السيّاب يستخدم تقنيّة التدرّج. فهذه التقنية من جانب تدلّ على ضياع القرية بوصف الضياع والتلاشي إحدى الدلالات التي يرشحها السطر الشعري المتدرّج ومن جانب آخر تكشف لنا الحواجز التي حالت ما بين السيّاب والقرية؛ حيث يمكن القول بأنّه: "لم يكن السور الحاجز الوحيد بينهما، بل امتدّت الحواجز على شكل درج لتشمل السور والبوابة والسكينة التي تشير إلى التلاشي(المكان الفارغ) فضلاً عن الاقفال"(عبد الجبار كريم الشرع، ٢٠١٤م: ١٦٨٦):

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكينة.

فمن يخرق السورَ؟ من يفتح البابَ؟ يدمي على كلّ قفل يمينة؟

ويُمناي: لا مخلبٌ للصراع فأسعي بها في دروب المدينة

ولا قبضةٌ لابتعاث الحياة من الطين...

لكنّها محضُ طينة

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكينة.(السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ٧٣)

٦-٢-٣-اليأس

ومن التطور الدلاليّ للباب في شعر السيّاب؛ أنّه يتحوّل إلى مصدر من اليأس بعد ما كان بؤرة أمل، حيث نجد المخاوف تتصاعد في قلبه ويقوده التشاؤم إلى حدٍّما يصنع باباً من خشب الصليب الذي اتّخدوه عُدّةً لصنع المشنقة فالآن أصبح عند السيّاب عدّة لصنع الباب، إلّا أنّ هذا الباب لا يقوده إلى الخلاص والاستقرار، بل يقوده إلى عالم الأموات المغلق؛ أي يقوم بنفس الوظيفة التي يقوم بها الصليب. والمعجم الشعري المستخدم في هذا المقطع الشعري يكشف عن مدى سيطرة التشاؤم في رؤيا السيّاب. الأمر الذي يدلّ على خوف السيّاب من الباب، حيث يقوده إلى عالم أظلم من العالم الذي هو فيه وهو عالم القبر، فأخذ يتدرّب على الظلمة التي تكون في انتظاره استعداداً وتأهّباً لمواجهتها وتقليلاً من الخوف الذي انتابه (محمد حسن ، ٢٠١١: ٥٨) وتجلّى في قصيدة "سفر أيوب ٩" : "أحرّك الأطراف لا تطيعني، مشلولة،/ مات الدم الفوّار فيها، أُطفئ الشبابُ،/ وامتدّ نحو القبر دربٌ، بابُ/ من خشب الصليب: فالمسيحُ/مات وفي الطوفان ظلّ نوحُ،" (السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ٣١٤)

٦-٢-٤-الفشل

ألم الغربة الذي فتّت روح السيّاب الحزينة، تجلّت ملامحه في دالّ الباب والدوال التي تحفّ بها. إنّ التنقل بين العديد من مستشفيات البلاد الأجنبيّة والعربيّة، والبحث عمّن يخلّصه من الداء العضال، أدخله في انطوائيّة وانعزال، الأمر الذي جلب له الاضطراب والقلق، بحيث أخذ يتصوّر الباب سدّاً حائلاً بعد ما كان فتحه انتظاراً وأملاً. وتحوّل الانتظار عنده إلى طلب مستحيل خاصّة وأنّه يطلب من روح أمّه الدخول من ذلك الباب لكي تزوره وهذا أمر مستحيل. إنّ طلب السيّاب في البداية يكون على صيغة الترجّي، غير أنّه لمّاكان اليأس غمر كلّ وجوده، فيتحوّل هذا الطلب عنده إلى صيغة التمنّي وهو أمر مستحيل الحصول أوبعيد الحصول (عكاوي، ١٩٩٦: ٤٢٨) : "البابُ ما قرعتْه غيرُ الرَّيح في الليل العميقْ،/ البابُ ما قرعته غير كفُّكِ./ أين كفّك والطَّريقْ/ ناءٍ؟بحارٌ بيننا، مدُنٌ، صحارَي من ظَلامْ/ الباب ما قرعتْه غيرُ الرِّيح.../ آه لعلّ روحاً في الرِّياح/ هامت تمرُّ على المرافئ أو محطاتِ القطار"(السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ٣٥٩). فلهذا "جعل الباب سدّاً بينه وبين الناس وهو الآن في الداخل محجوب خلف باب لا يطرقه أحد"(النصير، ١٩٩٥م: ٢٠٤). وما هذا إلّا فشل. فبعد هذا الأفول والفشل والخيبة في

الانتظار يحاول السيّاب أن يفرّ من الحاضر الذي هو فيه إلى الزمن الماضي، حيث كان طفلاً، فيطرق أبواب صباه وذكرياته وبويب...(نفس المصدر): " أنا الماضي الذي سدّوا عليه الباب فالألواح/عندي والحاضر الباقي"(السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ٢٧٦).

وأمّا من حيث الحياة الشخصيّة فإنّ السيّاب على الرغم من طيب نفسه زوجته وعطفها عليه إلّا أنّه بات فاشلاً في الحبّ؛ ذلك لأنّها ظهرت في وهمه باردة وعاجزة عن مشاركتها إيّاه في إحساساته ومشاعره. فالسيّاب للتعبير عن هذا الحبّ الجافّ وبياس العاطفة بدت رؤيته إلى الباب متفاوتة؛ حيث ظهر الباب في رأيه مجرّد خشب جامد يخلو من أيّة إحساس وعواطف حبّ(بطرس، ٢٠٠٣م: ١٤٩) كما يقول:" كأنّي أشرب الدّمَ منك ملْحاً، ظلّ عطشاناً/ من استسْقاه، أين هواكِ؟ أين فؤادكِ العاري؟/ أسدّ عليك بابَ الليل ثمّ أُعانقُ البابا/ فألثمُ فيه ظلّي، ذكرياتي، بعض أسراري" (السيّاب،٢٠١٢م، ج٢: ٢٧٤) كما نلاحظ أنّ الزواج في رؤية السيّاب بابٌ يفتح عليه العطوفة الضائعة في أيّام طفولته و"لئن راح في الماضي يسقط على الحبيبات ملامح أمّه، ويفضلهنّ أكبر سنّاً منه، لينعم بدفء الأمومة وعطفها (بطرس، ٢٠٠٣م: ١٤٨).

وفي قصيدة "شباك وفيقة" فالباب يبقى مغلقاً وذات الشاعر تواجه الفشل؛ حيث لا يفتح عليه أحد الباب ويظهر الولوج إلى الداخل والحصول على مأوى للمحبّة والحنان مستحيل، فاستخدام أداة شرط "لو" خير دليل على ذلك؛ لأنّها تدلّ على امتناع تحقّق الفعل: "فلم تفتحي./ ولو كان ما بيننا محض باب/ لألقيت نفسي لديك/ وحدّقت في ناظريك/ هو الموت والعالم الأسفل/ هو المستحيل الذي يُذهل." (السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ٢٠٨).

لمّا كان السيّاب من الذين احترق حبّاً وغيرةً لوطنه، فقد ظهر القلق مهيمناً في شعره (فهد ظاهر الأسدي، ٢٠٠٩م: ٤٦) يكفي أنّه استخدم هذا الدالّ في ديوان "شناشيل ابنة الجلبي" اثنين وثلاثين مرّة؛ الديوان الذي تجلّت حرقة القلق أكثر من سائر دواوينه؛ حيث قيل: "أنّ القلق احتلّ حصّة الأسد في شعره" (نفس المصدر: ٤٥) فتنوّعت رؤى القلق في هذا الديوان خاصّة وفي سائر دواوينه بشكل عامّ؛ منها: القلق من الطبيعة، والقلق من النساء، والقلق من الوحدة، والقلق من الزمن والقلق من الفناء والرحيل.(نفس المصدر). هذا القلق الذي انتابه لم يكن إلّا نتيجةً لتوافد الغربة والألم الجسمي إليه. فتجلّى كظاهرة نفسيّة في شعره عبر دوالّ مختلفة، بثّ فيها الأسى والضياع والحيرة. دالّ الباب الذي رأى فيه الخلاص في بعض أشعاره، بدا يقلقه"فهو أقوى منه يخشى صوته وانسداده" (نفس المصدر) فها هو في قصيدة "الباب تقرعه الرياح" يتحدّث عن اضطرابه النفسيّ الذي اعتراه بقرع الريح للأبواب في دهمة الليل

المظلم. وكما قلنا أنّ مواطن القلق تجلّت بأنواعها في شعر السيّاب، وفي كلّ موطن من تلك المواطن، ترك هذا الدالّ بصمته في استكشاف المدلول؛ على سبيل المثال أنّه يرى الباب موطناً من مواطن القلق؛ حيث برؤيته الباب يتذكّر لحظة الوداع التي كثيراً ما تضايق منها؛ لأنّه قلق من الغياب، فرأى" القلق يمشي مع خطوات حبيباته مثل حفيف الريح" (نفس المصدر:٥٢). "وحفيف الريح في ثوبك، أو وهوهة الليل مشى بين الغصون،/ولعانقتك عند الباب، ما أقسى الوداع!!/ آه لكنَّ الصِّبى ولّى وضاع؛" (السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ٣٩٣).

أحياناً أنّ الباب المغلق يوحي الصمت الرهيب؛ الأمر الذي بدا يتخوّف منه في مواطن عديدة في أشعاره وذلك بسبب الظروف السياسيّة الصاخبة والواقع السلطويّ العنيف والموت.(فهد ظاهر الأسدي، ٢٠٠٩م: ٥٤) فالخوف من المواجهة جعل السيّاب أن يشعر بقلق روحيّ شديد مصحوب بصمت مخيف؛ لذا بدت الأبواب مغلقة والستائر مسدولة والصمت مخيّماً، مخافة أن يتربّص بالشاعر خلف الأبواب والشبابيك قوى الشرّ التي تريد النيل منه: "الغُرْفةُ موصَدَة البابِ/ والصمتُ عميقْ/ وستائرُ شبّاكي مرخاةٌ.../ رُبَّ طريق/ يتنَّصت لي، يترصَّدُ بي خلفَ الشبّاك، وأثوابي/ كمفزِّع بُستان، سودُ/ أعطاها البابُ المرصودُ/ نَفَساً، ذرَّ بها حسّاً، فتكاد تفيقْ/ من ذاك الموت، وتهمس بي، والصَّمتُ عميق:/ "لم يبقَ صديق/ ليزورك في الليل الكابي/ والغرفةُ موصدةُ البابِ" (السيّاب، ٢٠١٢، ج٢: ٣٥٤).

من الدلالات السلبيّة في انفتاح الباب، ولوج قوى الشرّ إلى الداخل عند انفتاحه، فلهذا الإنسان عند شعوره باقتحام قوى الشرّ يتوخّى الحذر، فيقوم بسدّ الباب لكي لا تمسّه تلك القوى بالضرر. ونرى تجسيداً رائعاً لهذا المعنى في تراث الإنسان العراقي؛ حيث يعكس المثل العراقي هذا المعنى قائلاً: "الباب اللّيْ يِجيك مِنَّه رِيحْ سِدَّه واسْتِرِيحْ". فالسيّاب كإنسان عراقي عكس هذه الدلالة السلبيّة الكامنة في انفتاح الباب، وذلك عندما اتّخذ موقفاً سلبيّاً تجاه المدينة؛ حيث رآها بآفاتها فتحت فاها وابتلعت شرائح المجتمع، وهو واقع مؤلم آل إليه واقع المدينة من شيوع الفسق والفجور. فبدا السيّاب مُديناً لهذا الواقع المؤلم الذي انفتحت عليه المدينة؛ أيْ تلك الظواهر التي كانت تتراءى في ظاهرها مدينيّة إلّا أنّها ليست من المدنيّة في شيء، بل إنّها قوى شرٍّ، حملت في طيّاتها لهيب النار والدمار للعراق وتسلّلت من الأبواب وراح المجتمع العراقيّ ضحيّة لها: "وانسلّت الأضواء من باب تثاءب كالجحيم/ تطفو عليهنّ البغايا كالفراشات العطاش/يبحثن في النيران عن قطرات ماء...عن رشاش." (السيّاب، ٢٠١٢م، ج٢: ١٤٣).

٦-٢-٥-الخوف من المجهول

يعدّ الخوف من القضايا الروحيّة التي ينتاب الإنسان، وأحد عوامله هو الجهل بما يدور حول الإنسان، وفي المقابل العلم بالأشياء هو سبيل كشف الخفايا والمستورات التي يخافها الإنسان؛ أي العلم ينير درب الإنسان ويزيل الجهل الذي يعدّ أساس الخوف عن طريقه. وما الخوف ظاهرة نفسيّة تجعل الإنسان مضطرباً وتحول بينه وبين تقدّمه إلى الأمام. والسيّاب لمّا كان يحسّ بالموت ويعيه، يحاول أن ينقل نفسه من الموت في المستقبل إلى الماضي، رغم أنّ ماضيه لم يكن خالياً من المخاوف، ومرّد ذلك أنّ المستقبل مجهول بينما الماضي ممتلك معلوم (محمد حسن، ٢٠١١: ٣٥٦) فلهذا يفضّل بدلاً من أن يكون موته المنتهي بالحياة الخالدة في المستقبل المجهول يفضل أن يكون في الماضي المعلوم وإن كان ذلك الماضي حافلاً بالمخاوف للسيّاب. إلّا أنّه لا يبطن خوفاً شديداً والسيّاب مرّ به، هذا وأنّ في العودة إلى الماضي إحساساً طفوليّاً ساذجاً (نفس المصدر). يخفّف من الموت عليه ولو أنّ الموت الذي يؤمن به السيّاب متّصفاً بصورة الفداء. وبما أنّه ظهر كفادي للمجتمع قام بالبحث عن باب للخلاص غير أنّه فضّل أن يكون ذلك الباب مفتوحاً على الماضي المعلوم لا المستقبل المجهول: "وأنت يا بويب/ أودّ لو غرقت فيك، ألقطُ المحار/ أشيّد منه دارْ/يضيء فيها خضرة المياه والشجرْ/ ما تنضح النجوم والقمر/ فالموت عالم غريب يفتن الصغار/ وبابه الخفيّ كان فيك، يا بويب/أوّد لو غرقت في دمي إلى القرار،/ لأحمل العبء مع البشرْ/ وأبعثَ الحياة. إنّ موتي انتصار!" (السيّاب، ٢٠١٢، ج٢: ١٠٤). إذاً فتح الباب المغلق لا يعني الخلاص والأمان والاستقرار؛ بل لعلّ انفتاح مغلق يقود إلى فضاء أشدّ انغلاقاً "(محمد حسن،٢٠١١م: ٥٤) ويؤدّي إلى حالة أسوأ كما بدا السيّاب متخوّفاً من فتح الأبواب المغلقة في قصيدة "اللعنات- غضبة الشيطان" حيث انتهى فيها انفتاح الأبواب إلى فضاء القبور، الأمر الذي جعل السيّاب يشعر بالخوف والغلق.

القلق والاضطراب الناتج عن الوحدة والغربة مفهوم آخر استكشفه في الأبواب المغلقة، فحاول إظهاره في هذا المقطع الشعريّ ليصوّر لنا غربته القاسية التي تتفتّت لها القلوب؛ حيث يرى نفسه بعيداً عن أمّه/ الوطن، حال بينهما سور منيع فاقداً لأيّ باب وشباك وما هي إلّا الوحدة والغربة التي أخذ يدبّ القلق الناتج عنها في وجود السيّاب حتّى كاد أن يطرح على شفا حفرة الهلاك والضياع: "أمّاه ليتك لم تغيبي خلف سور من حجار/ لا باب فيه لكي أدقّ ولا نوافذ في الجدار"(السيّاب، **٢٠١٢م، ج٢: ٣٥٩**).

"فعقدة الخوف من النهاية المحتومة ظلت تراوده مرّة بصورة تموز ميّت وأخرى بصورة عزرائيل، فارس الموت" (الجنابي، ١٩٨٨م: ٢٢) حتّى أدخلته في كهفيّة، برغم أنّ دال الكهف يعني الأمان، والاستقرار والحياة، لكن لمّا كان السيّاب يقفل هذا الكهف بسبب القلق الذي انتابه، يتّخذ الكهف صورة الانغلاق

التامّ الذي لا منفذ له إلى الخارج، خاصّة وأنّ المعجم الشعريّ الموظّف، يدعم هذه النظرة السلبيّة، حيث يستخدم:" الطين، والقفل، والباب، والسور، والنور، القبر، والدجى، والجلجلة، والصخرة، وأماكن بحجر: " النور من طينٍ هنا أو زجاجْ./ قُفلٌ على باب سورْ./ النور في قبري دجى دون نور./ وعند بابي يصرخ المخبرون:/ النور في شباك داري زجاج،"(السيّاب، ۲۰۱۲: ۵۶).

٦-٢-٦-سلب الحرّيّة

السيّاب كشاعر اجتماعي اهتمّ بالمجتمع وقضاياه أيّما اهتمام. تأثر لما حلّ بشعبه من آلام ومضايقات سياسية، واجتماعية وثقافية. وتصدّى لكلّ قضايا الشرّ التي أجرفت شرائح مجتمعه المختلفة؛ تألّم للعراق الأمّ وأراد له الانطلاق إلى مستقبل زاهر والتخلّص من نيّر هيمنة الاستكبار، وفي الوقت ذاته تألّم لحال المساكين وأراد لهم الخروج من شظف العيش إلى النعيم فتألّم صارخا بالظالمين: "أيّها الجبناء كفّوا" (نفس المصدر: ۳٦٧) ولقد انطبعت في نفسه بجانب مرضه العضال، آلام تخصّ مشاكل المرأة وحقوقها ومشاكل الفقر الثقافيّ والبؤس، فمن القصائد التي عالجت تلك الظواهر يمكن الإشارة إلى: "المومس العمياء، حفّار القبور، الأسلحة والأطفال، المخبر، حسناء القصر، غريب على الخليج، ابن الشهيد، من ليالي السهاد. فرؤية السيّاب في هذه القصائد وقصائد أخرى رؤية ثنائيّة ضديّة، على سبيل المثال في قصيدته "من ليالي السهاد" رأي في الباب ما يخلّصه من العتمة التي وقع فيها، وفي نفس الوقت رأى الباب سلب منه الحريّة؛ حيث يقول: "كما ينسلُّ نورٌ خائفٌ من فرجةِ البابِ/ إلى الظلماء في غُرْفة"(نفس المصدر: ٤٦١) فدخول النور بانسلال يعني الحركة بخفية ولا تحدث هذه الحركة إلّا في حالة الضيق؛ وهي حالة يشعر الإنسان فيها أنّ قدرات قويّة سلبته حقوقه الطبيعيّة، فعليه أن يجاهد للوصول إليها إمّا هلاكاً إمّا خلاصاً.

فانغلاق الأبواب يعني المحدوديّة، وكبت الحرّية وسلبها والانتهاء، وانفتاحها يعني منح الحريّة والانطلاق إلى فضا رحب يعمّه النعيم. فمن القصائد التي تجلّت فيها هذه الثنائية قصيدة "ثعلب الموت". إنّ السيّاب وبغداد عاشا واقعاً سياسيّا مرّاً كبتت فيه الحريّة. فلذا لتبيين هذا الواقع السياسيّ المرّ يجعل بغداد في سور ثمّ يغلق باب ذلك السور هذا وأنّه "ما ذكر المدينة إلّا واقترنها بالموت والدمار، والسيّاب الذي عاش واقعها السياسي تلبّس حالها، ولذلك فموته هو موت بغداد وموت بغداد موت لحرّيته"(النصير، ١٩٩٥: ١٨٢) : "سور بغداد موصد الباب، لا منجى لديه ولا خلاصٌ يُنال./ هكذا نحن، حينما يُقبل الصيّاد عزريل:/ رجفةٌ فاغتيال. "(السيّاب، ٢٠١٢، ج٢: ٩٩)

۷-النتیجة

تتبعت الدراسة ورود لفظ الباب وما طرأ علیه من تطور دلالي في شعر السیاب حیث وجدت:

۱. أنّ الشاعر عمد إلى الاستخدام الموسّع للكلمة من حیث العدد ومن حیث الدلالة، وأدخلها في بنیة لغویّة تحتضن المجاز والرمز وتنمّیهما. فاصبحت متداولة في معجمه الشعري، وأخذت تدلّ على عدّة مفاهیم بعضها إیجابیّة والأخرى سلبیّة.

۲. من أسباب الاستعمال الموسّع للفظ "الباب" في شعر السیّاب أنّ حیاته كانت ملیئة بالهموم وهو كشاعر واقعيّ انطبعت في نفسه هذه الهموم فاتّخذه ثیمة في شعره وركّز علیه في شعره لیشحنه بدلالات مختلفة.

۳. أنّ رؤیة السیّاب الإیجابیّة الخاصّة بالباب تمحورت داخل الأقطاب التالیة؛ الوقوف والانتظار، الحفظ والأمان، والخروج من الحرمان، والعمار والخراب والملجأ.

٤. أنّ السیّاب قام بتوظیف دال الباب توظیفاً رمزیّا سلبیّاً یقابل الوجه الأوّل؛ حیث تجد إغلاق الباب عنده بمعنى العجز، والحرمان، والفشل، والعجز، والفشل، والمانع، والیأس، والخوف، وجفاف المحبّة وسلب الحریّة.

۵. مثّلت الرؤیة السلبیّة للباب عند الشاعر صورا مكبوحة، مقطوعة السبل لا أمل في انتعاشها وهي لم تكن إلّا نتیجة للظروف التي مرّ بها السیّاب ، وتشیر إلى تجربة الشاعر في صراعه مع المرض وحبّه الفاشل، والفقر الاقتصادي والظلم الذي عاناه السیّاب في حیاته.

قائمة المصادر

بطرس، أنطونیوس. (۲۰۰۳م). ***بدر شاكر السّیاب، شاعر الوجع***، لبنان، طرابلس: المؤسّسة الحدیثة للكتاب.

البیاتي، عبد الوهاب. (۱۹۹۵م). ***الأعمال الشعریّة الكاملة***. ج۱ بیروت: المؤسسة العربیّة للدراسات والنشر.

جبرا، ابراهیم جبرا. (۱۹۷۱م). ***من شباك وفیقة إلى المعبد الغریق في ضمن كتاب"السّیاب في ذكراه السادسة"*** . بغداد: وزارة الإعلام.

الجنابي، قیس كاظم.(۱۹۸۸م). ***مواقف في شعر السّیاب***. بغداد: مطبعة العاني.

درویش، محمود. (۲۰۰۵م). ***الدیوان الأعمال الأولى۱*** . الطبعة الأولى. بیروت: ریاض الریس للكتب والنشر.

________ (۲۰۰۵م). ***الدیوان الأعمال الأولى۳*** . الطبعة الأولى. بیروت: ریاض الریس للكتب والنشر.

رشید نعمان، خلف. (۲۰۰۵م). ***الحزن في شعر بدر شاكر السّیاب***. الطبعة الأولى. لبنان، بیروت: دار العربیّة للموسوعات.

السيّاب، بدر شاكر. (۲۰۱۲م). ***ديوانه***. لبنان، بيروت: دار العودة.

عبد الجبّار كريم الشرع؛ أمل، وكاظم، شنبارة إيناس. (۲۰۱٤م). "***الفضاء الزمكانيّ في القرية عند الشعراء الروّاد***" . مجلّة بابل العلوم الإنسانيّة، المجلد۲۲، العدد٦، ، صص١٦٨٣-١٦٩٦.

عكّاوي، إنعام فوّال. (١٩٩٦م). ***علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني،الطبعة الثانية***. بيروت: دار الكتب العلميّة.

علوان الكنانيّ، نجاة. (۲۰۱۱م). ***" بواعث الألم في شعر السيّاب، مجلّة دراسات البصرة"*** . السنة السابعة. العدد ١٢. صص٨٧-١٢٠.

لي، محمد جواد. (٢٠١٣م). ***"ثنائية الحبّ والكراهيّة- دراسة في المكان الشعريّ السيّابيّ"*** . مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانيّة. المجلّد ٢، العدد٨. صص١-٣٠.

عمر، أحمد مختار. (٢٠٠٣م). ***معجم اللغة العربيّة المعاصرة***. ج١. الطبعة الأولى، القاهرة: عالم الكتب.

فهد ظاهر الأسدي، صدّام.(٢٠٠٩م) ***" تشظّيات القلق في شعر السيّاب شناشيل ابنة الجلبيّ اختياراً"***. مجلّة أبحاث البصرة(العلوم الإنسانيّة). المجلّد٣٤. العدد١. صص٤٥-٦٢.

القاسم، سميح. (١٩٨٧م). ***الديوان***، بيروت: دار العودة.

محمد حسن، لطيف. (٢٠١١م). ***الفضاء الشعريّ عند بدر شاكر السيّاب***. الطبعة الأولى. سوريا، دمشق : دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع.

لنصير، ياسين. (١٩٩٥م). ***جماليات المكان في شعر السيّاب***. سوريا، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی